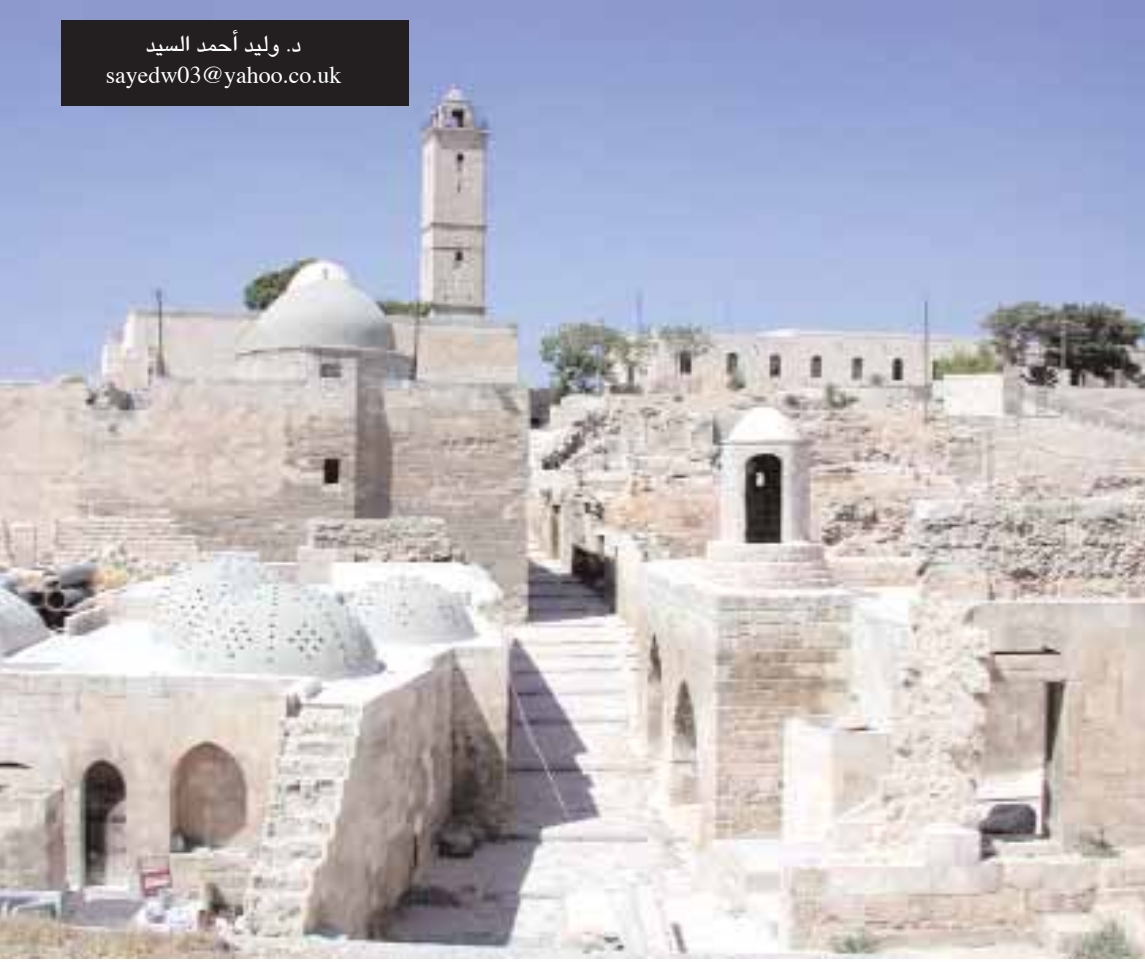




د. وليد أحمد السيد
sayedw03@yahoo.co.uk

قصة العمارة العربية المعاصرة



وغربا أبرز الأثر في النزعات نحو الاستقرار وتطوير البيئة العمرانية المحيطة كمؤشر ملموس من قبل الساسة وصناع القرار على بدء حقبة ما بعد الاستعمار والاستقلال، بالإضافة إلى العديد من العوامل الأخرى من أهمها عودة وظهور مجموعة من المعماريين العرب كان لهم السبق التاريخي والفرصة لترتكب بصماتهم في ساحة الفكر والتطبيق للعمارة العربية ذكرنا بعضهم.

ومن البديهي أن الفترة التي بدأت معالم العمارة العربية المعاصرة فيها بالتبلور لم تخل من إرصاصات وملامح وعوامل أثرت بشكل كبير في نموها ووجهتها، ما خلا الفكر النظري والتطبيقي لإثنين من المعماريين اللذين يمكن اعتبارهما بحق رائدي العمارة العربية المعاصرة، وهما حسن فتحي ورأسم بدران. وبالرغم من هذا التقرير بحقيقة العمل العظيم الذي قدمه هذان العملاقان للعمارة العربية المعاصرة فكرا وتطبيقا، إلا أن أعمالهما وفكرهما لا يزالان يثيران الكثير من الجدل في الأوساط المعمارية المعاصرة والفكر المعماري وبخاصة في زمن العولمة ومع مطلع القرن الحادي والعشرين. فالفكر المعماري لحسن فتحي صاحب المدرسة التراثية الصارمة التي تقدر التراث كأداة ومحتوى بات من أعباء التقدم ومجالا خصبنا لمناكفة التقدميين وأضحى ينظر إليه في إطار ومحتوى زمنيين يعودان لمرحلة "تاريخية" منصرمة. ولكن وعلى الرغم من الاحترام والتقدير الذي يتمتع به التراث "الحسنى الفتحي" إلا أن المتأمل يلاحظ أن حضوره في الحاضر لا يبنى يتلاشى تدريجيا وبات يموت "كفكر جماعي" يموت صاحبه عام ١٩٨٩. أما فكر المعماري رأسم بدران وطروحاته النظرية والتطبيقية، وبرغم سبقها التاريخي ونقلها للعمارة العربية المعاصرة من بوتقة "الحطية" لتدق دقات قوية مؤثرة على أبواب الجوائز والتقدير العالمية، إلا أن المتأمل الناقد يلاحظ أيضا أنها لم تعد تحظى بذات الحماسة التي حظيت بها مع بداياتها في السبعينيات وحتى التسعينيات على الرغم من التجديد والتفاعل مع المتغيرات الطارئة. فلا يزال بعض النقاد ينظر إليها كظاهرة مرحلية لا تخلو من بعض التكرار وتكاد تخبو بين إرصاصات "تذب القبيلة" والتطلعات والتقدير الإقليمية والعالمية، فضلا عما قد يطرحه بعض النقاد من أنها كمدروسة وكظاهرة لا تكاد ترقى إلى المرحلة المؤسسية الجماعية المؤثرة في ساحة العمارة العربية المحيطة تأثيرا فاعلا ينعكس على الواقع العملي وليس النظري فحسب وهو مما يمكن أن يعزى لعوامل وإرصاصات بيروقراطية وإدارية وليست فنية بالضرورة. ■

برغم الارتباط الوثيق بين العمارة والحضارة عموما، إذ إن الأولى هي مؤشر ودليل ومظهر قوي للأخيرة، ورغم إمكانية وسهولة تتبع الحضارة وتاريخ نشوئها، إلا أن العمارة العربية تزوج عن التتبع السهل لتاريخ نشوئها كعمارة ذات ملامح وخصائص واضحة. ومن المهم هنا وقبل أن نستعرض أن نبين أننا لا نقصد "العمارة الإسلامية" التي تم توثيقها من قبل المؤرخين الغربيين والتي لا تمثل العمارة الشعبية بحال، بل هي حالات خاصة لمباني صرحية صممية تعكس أقلية ولا تعكس ما نرمي إليه هنا. فالعمارة البيئية ندرت الدراسات الجادة المتعمقة بها، ما زاد من الفجوة. نظريا على الأقل. بين ماهية العمارة العربية بشكل عام. ونتيجة الخلل في المفهوم الاستشراقي الصرحي الذي تركز على يد الباحثين الغربيين وغياب الدراسات حول العمارة الشعبية والبيئية عانت العمارة العربية المعاصرة ولا تزال من ترد كبير في الفكر النظري والبحث الجاد والتطبيق العملي سواء بسواء.

وشهد هذا العصر فنانيين مثل جيوتو (Giotto) والذي كان في الثلاثينيات من عمره آنذاك، وكان أهمهم "دانتي" مؤلف (Divine Comedy). أهمية عصر النهضة، كما يذكر (John Hale) في كتابه (Renaissance)، مطبوعات (1971) B.V., International (Nederland) (Time-Life) هو أنها كانت حركة تنوير حضارية غيرت مفاهيم العالم الأوروبي تجاه الإنسان وفكره وحيثيته. وتميزت هذه الفترة بأنها كانت واقعا معاشا بالنسبة للأدباء الذين كانوا يدركون أهمية النقلة النوعية التي تحدث والتي كانت محسوسة بالنسبة لهم، وليست كأية فترة كتب عنها المؤرخون لاحقا بعد أن أصبحت تاريخا، بل كانت "تاريخا أوروبيا" في مرحلة الصناعة وضمن وعي الكتاب والمفكرين لتلك الفترة، وهو ما يميز هذه الحقبة التنويرية عن غيرها من الفترات التاريخية التي لم يكن مفكرها بالضرورة على وعي بأهمية النقلة النوعية التي تركزها أفكارهم التنويرية. وثالثا - هذه الفترة التي بدأت مع مطلع السبعينيات وحتى بعيد نهاية القرن المنصرم تميزت بعباء وطرح فكري غير مسبوق في تقديم نماذج وآليات ومنهجيات فاقت المألوف وأست لجيل كامل من المعماريين العرب لتتبع خطى الرواد الأوائل لجيل "عصر النهضة المعمارية العربية" هذا.

ومن أبرز رواد هذه الحقبة التنويرية هو المعماري الراحل حسن فتحي والذي قاد لواء التغيير من القاهرة بمصر بعد الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من محاولات حسن فتحي التي تمتد لما قبل السبعينيات، والتي اعترافا العديد من التجارب المختبرية لأفكاره النظرية بما يضعها ضمن قائمة التجربة والخطأ المختبري، إلا أن البداية الفعلية لعصر نهضة العمارة العربية الحديثة - كفكر نظري وكواقع يمكن دراسته وتمييزه - تعود لما بعد الستينيات ومطلع السبعينيات للعديد من العوامل منها ثورة اكتشاف النفط في معظم الدول العربية والتي حدثت في أواسط الستينيات. كذلك كان لاستقلال الدول العربية بعيد الحرب العالمية الثانية من تبعيات الاستعمار العسكري المباشر الذي تعرض له معظم جسم الوطن العربي الكبير الممتد شرقا

والتتي تبلورت منذ بداية السبعينيات مثلت منعطفًا مهما في تاريخ العمارة العربية المعاصرة، إذ يمكن النظر إليها "كعصر النهضة المعماري العربي المعاصر". فهذه الفترة حملت من رياح التغيير وأفكار التنوير المعمارية ما كان ثورة على الكلاسيكية من جهة وما شكل نقلة نوعية في أجياديات الخطاب المعماري العربي المعاصر من جهة ثانية. فهذه الحقبة "النهضوية" في تاريخ العمارة العربية المعاصرة تميزت بالعديد من المؤهلات منها: أولا تجمع العديد من أقطاب الفكر المعماري العربي التنويري وتبلور مجموعة من رواد العمارة العربية أمثال حسن فتحي

والتي تبلورت منذ بداية السبعينيات مثلت منعطفًا مهما في تاريخ العمارة العربية المعاصرة، إذ يمكن النظر إليها "كعصر النهضة المعماري العربي المعاصر". فهذه الفترة حملت من رياح التغيير وأفكار التنوير المعمارية ما كان ثورة على الكلاسيكية من جهة وما شكل نقلة نوعية في أجياديات الخطاب المعماري العربي المعاصر من جهة ثانية. فهذه الحقبة "النهضوية" في تاريخ العمارة العربية المعاصرة تميزت بالعديد من المؤهلات منها: أولا تجمع العديد من أقطاب الفكر المعماري العربي التنويري وتبلور مجموعة من رواد العمارة العربية أمثال حسن فتحي



والعمارة العربية المعاصرة، وكما هي دلالات الواقع، وبأحسن أحوالها، هي مزيج من أخلاط غير متجانسة من العوامل الثقافية والاجتماعية والتدخلات السياسية والاضطرابات الاقتصادية والديموغرافية. وهي بواقعها المعاصر إنما تعكس أخلاطاً لتصورات ورؤى معماريين معاصرين يعيشون بيئة فكرية تعاني من تدخلات الذات والآخر الحضارية وقيم مجتمعية وثقافية مشوهة. وبذا تعيش العمارة العربية المعاصرة حالة من عدم التجانس الفكري وغياب المظلة الفكرية المنظمة التي تضبط قواعدها. ومن هنا فكل معماري ومخطط حضري أو إقليمي إنما تعكس أعماله حالة من "التفكير المرحلي غير الناضج" ومحاولات البحث عن الذات والعمل المعماري الشخصي الذي لا يعكس الفكر الواعي "المجموعي" بالضرورة. هناك محاولات جادة في إطار البحث عن الهوية والتراث الفكري والحضاري للأمة، كما سنبين في مساحات قادمة يمهدها لهذا المقال، بيد أن هذا المحاولات فردية ولم ترق بعد لمستوى التنظير الجماعي أو المدرسي العميق.

وبالرغم مما أسلفنا حول صعوبة تتبع نشأة العمارة العربية المعاصرة إلا أنه يمكننا - زعما - أن نؤرخ لها كظاهرة حديثة نشأت مع نهاية الستينيات من القرن العشرين. وهذه الفترة تحديدا تميزت بالعديد من الطفرات والتغيرات السياسية والاقتصادية التي يمكن أن نعزولها أسباب ولادة عسيرة للعمارة العربية المعاصرة بعد فترة من الركود العمراني والحضاري امتدت لعشرات السنوات بما لم يشكل أساسا لظاهرة عمرانية تذكر. فالقرن التاسع عشر كان قرن الاستعمار العسكري الغربي المباشر وما تلاه وسبقه من حملات استشرافية نظرت في الموروث الحضاري لأبرز الدول العربية الشرق أوسطية فأعملت فيه القلم يمنية ويسرة بما شاء منظرو الاستعمار آنذاك مما بقي لليوم برحيقه وسوموم. كذلك عانى الوطن العربي بمجمله بمعاناة الدولة العثمانية التي كانت في طور الاحتضار، ولم تسمح تلك الحقبة المهترزة بتطور معماري يذكر عدا عن امتدادات طراز عثماني علا وجه بعض الحواضر العربية ونسخ أوجها من تراثها العمراني. هذه الفترة وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ حملت الكثير من تلاحقات عمرانية إما تنتمي لفترات بائنة أو تستشرف إطلالات من العمارة العالمية التي سادت مع مطلع القرن العشرين، وخلت تماما من الفكر النظري المعماري العميق الذي يمهده لنهضة عمرانية عربية معاصرة، ما خلا فكر حسن فتحي الذي بدأ يتبلور مع مطلع الثلاثينيات. لكن الفترة التي تلت تلك الحقبة الراكدة